BOOK REVIEW

محمد عناني، نظرية الترجمة الحديثة: مدخل إلى مبحث دراسات الترجمة، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ٢٠٠٣، ٣٢٢ ص.

فى ***نظرية الترجمة الحديثة: مدخل إلى مبحث دراسات الترجمة*** (٢٠٠٣) يستعرض د.محمد عناني مبحث دراسات الترجمة كحقل علمى له نظرياته وتطبيقاته كسائرالحقول العلمية التي تتمتع بتقاليد راسخة وتمنح فيها الدرجات العلمية، وهو بذلك يفرق بين هذا المبحث العلمى وممارسة الترجمة كما عرفها الإنسان على مدى آلاف السنين وهي النقل من لغة إلى لغة ويضع دراسات الترجمة في سياق أوسع من السياق اللغوي اللفظي الضيق الذي درج البعض على اعتباره الغاية من الترجمة. وتأتى أهمية الكتاب من قدرته على العرض الوافي لمداخل عدة تشمل المدخل اللغوي وإن لم تقتصر عليه مدعومة بنماذج وافرة من العربية والإنجليزية، وهو ما ينفي عنه صفة العرض النظري المحض. ويتبنى د.محمد عناني في كتابه منهجا يقوم على التسلسل الزمني يشابه ما أسس عليه جيريمي منداي كتابه *Introducing Translation Studies: Theories and Applications* الصادر في ٢٠٠١ ويزيد عليه ما استمده من خبرته كأستاذ جامعي ومترجم وشاعر وكاتب مسرحي وناقد، وهو ما يجعل منه مرجعا لا غنى عنه لدارسي نظريات الترجمة من أبناء العربية جنبا إلى جنب مع المراجع الأجنبية لا سيما الإنجليزية.

ينقسم الكتاب إلى مقدمة وسبعة فصول إضافة إلى مصادر ومراجع ومسرد لأهم مصطلحات نظرية الترجمة ومعانيها بالعربية في سياق الكتاب. في المقدمة يمهد المؤلف لنظريات ومناهج الترجمة التي يضمها الكتاب بعرض تاريخى للنشأة الأكاديمية لمبحث دراسات الترجمة في النصف الثاني من القرن العشرين وطبيعته البينية التي جعلت من العلوم الإنسانية والاجتماعية روافد أساسية لممارساته ومناهجه. ويشير إشارة سريعة إلى الكتابات الأولى عن الترجمة التي تعود إلى ما يزيد على ألفي عام والنظرة إلى الترجمة كوسيلة لتعلم اللغة الأجنبية التي سادت النصف الأول من القرن العشرين، ثم يفرد الجزء الأكبر من المقدمة لتقديم بحث جيمس هومز (١٩٧٢، ١٩٨٨) الذي رسم خريطة المبحث الجديد كما نعرفه حاليا.

يُعرّف الفصل الأول "لمحة تاريخية عن الترجمة" بأسس الكتابات الرئيسية في الترجمة على يد القدماء وحتى النصف الأول من القرن العشرين، والتي كانت تتمحور حول ثنائية الترجمة الحرفية (word for word) والترجمة الحرة (sense for sense) كما تناولها شيشرون وهوراس والقديس جيروم في ترجمته للكتاب المقدس وكذلك مارتن لوثر في ترجمته الألمانية للكتاب المقدس. كما يتطرق الفصل إلى الفئات الثلاثة للترجمة عند درايدن وهي النقل الحرفي (metaphrase) والنقل بتصرف (paraphrase) والمحاكاة (imitation)، وما أسماه شلايرماخر بأسلوبي التغريب و التجنيس أو الألفة في الترجمة. ويرصد الفصل الأول قلة الاهتمام بالنظرية في العالم العربي لانشغال المفكرين العرب بنحت لغة عربية تستطيع مسايرة العصر.

ويتطرق الفصل الثانى "نظريات المعنى في الترجمة" إلى ما سبق الإشارة إليه في الفصل الأول من ترجمة المعنى لا اللفظ الذي ارتبط بمفهوم التعادل (equivalence) فيورد أهم من تناولوا هذا المفهوم مثل رومان ياكوبسون الذي يؤكد على إمكانية التعادل بين رسائل اللغة المصدر واللغة المستهدفة رغم اختلاف الأبنية اللغوية والمصطلح اللغوي بينهما. كما يسلط الفصل الضوء على يوجين نايدا واهتمامه بالمعنى الوظيفى (functional) للكلمة المكتوبة والذي ينفى ثبات معنى الكلمة إذ تكتسب الكلمة معناها من سياقها، وكذلك تحديده لأقسام ثلاثة للمعنى: لغوي (linguistic) وإحالي (referential) وشعوري (emotive). ويستعين د.عناني بأمثلة من الشعر العربي والقرآن الكريم لتوضيح الاختلاف بين أقسام المعنى وأهمية السياق، كما يوضح ارتباط نظريات نايدا في الترجمة وخاصة ما يتعلق منها ببناء الجملة بعلم اللغويات في عصره وخاصة نموذج النحو التحويلي التوليدي (transformational generative grammar) الذي وضعه نعوم تشومسكي. ويسلط الضوء على اهتمام نايدا بقضية التعادل وتفريقه بين التعادل الصوري (formal) والتعادل الدينامي (dynamic) وارتباطه بمفهوم التطويع (adaptation)، وهو ماكان له تأثيره على مناهج دراسة الترجمة فيما بعد، فكان أن أتى بيتر نيومارك بنظريته عن الترجمة الدلالية (semantic) والترجمة التوصيلية (communicative). وهنا يعمل د.عناني على تقريب هذين المفهومين للقارىء العربي بالتطبيق على ترجماته لبعض قصائد وردزورث ووليم بليك متبحرا في بحور الشعر العربي والاختلافات الثقافية بين العربية والإنجليزية والتي أملت عليه الاختيار بين مفهوم الترجمة الدلالية أو الترجمة التوصيلية أو التوفيق بينهما بحسب ما تقتضي الترجمة. ثم ينتقل إلى كولر، أحد أهم الدارسين الذي تأثر بمفهوم التعادل عند نايدا وربطه بمفهوم آخر هو التقابل (correspondence). ويطرح كولر مستويات التعادل التي تتراوح بين التعادل التحديدي (denotative) وتعادل ظلال المعنى (connotative) وتعادل النصوص المعيارية (text-normative) والتعادل التداولي (pragmatic) والصوري (formal)، وهو ما يفرض على المترجم أن يضع لنفسه أولويات التعادل التي ينبغى الحفاظ عليها في الترجمة والتي تتفاوت بين النص الإخباري والأدبي على سبيل المثال. ويستعين د.عناني بترجمتين له من بحرين مختلفين لقصيدة لصمويل دانيال ليدلل على إمكانية اختلاف أولويات التعادل باختلاف الذائقة الفنية للمترجمين عند ترجمة العمل الأدبي الواحد. وينتهي الفصل بالإشارة إلى باحثين آخرين تناولوا مفهوم التعادل مثل سوزان باسنيت ومنى بيكر.

ثم ينتقل في الفصل الثالث وعنوانه "مناهج قياس التغيير في الترجمة" إلى أهم تلك المناهج وما يتبعها من استراتيجيات، متتبعا تطور مفهوم التغيير (shift)، فيبدأ بمنهج فيناي وداربلنيه (١٩٥٨) الذي يضع استراتيجيتين رئيسيتين: الترجمة المباشرة (direct) وغير المباشرة (oblique). تتضمن الأولى الاقتراض (borrowing) والنقل بالمحاكاة (calque) والترجمة الحرفية (literal) و هي الأكثر قبولا إن كانت قادرة على نقل الرسالة وإلا كانت الترجمة غير المباشرة هي البديل، سواء كانت الإبدال الصرفي (transposition) أو تغيير النظرة (modulation) أو التعادل (equivalence) أو التطويع (adaptation). ثم ينتقل إلى كاتفورد (١٩٦٥) ومنهجه في قياس التغيير القائم على علم اللغة، ويشمل فئتين وهما تغيير المستوى (level shift) وتغيير الفئة (category shift)، ومنه تتفرع التغييرات البنائية (structural) والتغييرات في الطبقة (class) وتغيير الوحدة أو الرتبة (unit) والتغييرات داخل النظام (intra-system). ثم يعرض الفصل لمنهج قياس التغيير في الجانب التعبيري للغة الذي وضعه جيري

ليفى (١٩٦٩) كالمعنى التحديدي (denotative) وظلال المعاني (connotations) والترتيب الأسلوبي (stylistic arrangement) والتركيب (syntax) والتكرار الصوتى (sound repetition) وأطوال حروف العلة (vowel length) والربط (articulation)، وكلها قرارات يتخذها المترجم منتهجا ما يسمى باستراتيجية الأقصى بالأدنى (minimax strategy). كما يشير إلى تأثر فرانتيشيك ميكو بمنهج ليفي في اهتمامه بـ"المعالجة الجمالية" للتغيير في النصوص التعبيرية، فيوجه إلى دراسة الفعالية (operativity) والأيقونية (iconicity) والذاتية (subjectivity) والتصنع أو التكلف (affectation) والإبراز (prominence) والتضاد (contrast). ويختتم الفصل بمنهج كيتي فان لويفن-زفارت (١٩٨٩) التي تدرس التغيير في الترجمة الأدبية باستخدام نموذجين للمقارنة بين النص المصدر والنص المستهدف، أحدهما على المستوى البنائي الصغير (microstructure) بحيث يقسم النص إلى وحدات لها معنى ونموذج وصفي (descriptive) ينظر إلى البناء الكبير (macrostructure) باستخدام مفاهيم من علم السرد (narratology) وعلم الأسلوبية (stylistics) لدراسة التغيير على مستوى الخطاب (discourse) ومستوى القصة (story)، ووظائف اللغة الرئيسية الثلاثة: فيما بين الأشخاص (interpersonal) والخاصة بالأفكار (ideational) والنصية (textual). ولا يفوت د.عناني أن يختبر فاعلية هذه المناهج بالتطبيق على نصوص مترجمة أبدعها هو كما في تطبيقه لمنهج فان لويفن-زفارت على ترجمته لمسرحية هاملت.

وتحت عنوان "نظريات الترجمة الوظيفية" يرصد الفصل الرابع تغير اتجاهات البحث في دراسات الترجمة من التركيز على القوالب اللغوية إلى الاهتمام بالمداخل الوظيفية والتوصيلية في تحليل الترجمة، مثل المدخل الوظيفي لكاترينا رايس الذي يقوم على أنماط النصوص (text types) ووظائف اللغة، فتقسم النصوص إلى أنواع لكل منها وظيفته ويعتمد تحقيق التعادل بين النص المصدر والمستهدف على نقل الوظيفة المهيمنة للنص المصدر إلى النص المستهدف والتي بدورها تستند إلى معايير لغوية داخلية (intralinguistic) ومعايير خارجة عن اللغة (extralinguistic). ولتقريب هذه المفاهيم إلى ذهن القارىء يطبق د.عناني المدخل الوظيفي على أنواع نصوص مختلفة ما بين العلمي والإخباري وعلى قصيدتين واحدة عربية والأخرى إنجليزية. ثم ينتقل إلى نظرية فعل الترجمة (translation action) التي وضعتها هولتس مانتاري التي تنظر إلى الترجمة باعتبارها نشاطا إنسانيا يقوم على التفاعل بين عدد من اللاعبين لكل منهم دوره بهدف إخراج نص يتفق في نوعه وشكله مع ما تتوقعه الثقافة المترجم إليها، وهذا هو دور المترجم الذي عليه أن يطمئن إلى أن "فعل الترجمة" نجح في تحقيق النقل بين ثقافتين. ويضرب المؤلف مثلا بالترجمة إلى العربية في الهيئات والمنظمات الدولية حيث الهدف من فعل الترجمة إخراج نص يلبي حاجات المشاركين في عملية الترجمة على اختلاف أدوارهم (صاحب المبادرة الذي يحتاج الى الترجمة، ومُصدرالتكليف، ومنتج النص المصدر، ومنتج النص المستهدف، ومستعمل النص المستهدف، ومستقبل النص المستهدف). ويتناول الفصل نظرية أخرى هي نظرية الوظيفة أو الترجمة الوظيفية (Skopostheorie) التي وضعها هانز فيرمير، وترى أن الغرض من الترجمة هو الذي يملي على المترجم استراتيجيات الترجمة التي تحقق هذا الغرض في النص المستهدف، وبذلك تولى هذه النظرية أهمية كبرى لمبدأ الكفاية (adequacy) على حساب مبدأ التعادل (equivalence)، ويقصد بالكفاية تحقيق الغرض من الترجمة كما هو محدد في التكليف بترجمة نص (commission). ويورد الفصل في إطار

النظرية الوظيفية مفهومى كريستيان نورد للترجمة الوثائقية (documentary) التي تهدف إلى إنتاج وثيقة توصل ثقافة النص المصدر إلى المتلقي كما هو الحال في الترجمة الأدبية، والترجمة الهادفة (instrumental) التي تقوم بمهمة نقل رسالة في إطار الثقافة المستهدفة دون أن يدرك المتلقي أن هذا النص قد وُجه من قبل إلى متلقّ غيره، مع التطبيق على ترجمات قصائد الشعراء الإنجليز براوننج وشيلي ووردزورث إضافة الى نصوص صحفية.

ويتناول الفصل الخامس وعنوانه "مداخل علوم اللغة الحديثة" تأثير هذه العلوم على دراسات الترجمة وأهمها تحليل الكلام/الخطاب (discourse analysis) الذي يُعنى بكيفية توصيل اللغة للمعنى وما يكشفه ذلك من علاقات اجتماعية وعلاقات السلطة والقوة في المجتمع، وهو العلم الذي قام على نموذج هاليداي المعروف بالنحو الوظيفي (systemic functional grammar) وأفاد منه باحثو دراسات الترجمة، فالتقطت جوليانه هاوس من هذا النموذج مبدأ تحليل النطاق الذي يتكون من الوسائل اللفظية والبنائية والنصية وجعلته أساس منهجها لتحليل النص الأصلي والمترجم وما إذا كانت الترجمة سافرة (overt) أو مستترة (covert). كذلك أفادت منى بيكر من نموذج هاليداي وطوعته ليناسب اللغة العربية لا سيما ما يتعلق بـ"جماليات النص" لمساعدة المترجم على اكتشاف مواطن التميز النسبي (relative markedness) في النص تبعا لبناء كل لغة مع التأكيد على أهمية التعادل التداولي (pragmatic equivalence). ويأتى في ذات السياق ما قدمه باسل حاتم وإيان ماسون من دراسات أفادت من منهج هاليداي لا سيما المتعلق بالدلالة الكلامية للنص، وزادا عليه النظر في المستوى السيميوطيقي والجانب الأيدولوجي للنص.

وفي الفصل السادس "المداخل العامة والثقافية" يتناول المؤلف نظرية تعدد النظم (polysystem theory) لإيتامار إيفين-زوهار والتي ترى الأدب المترجم نظاما يتفاعل مع النظم الأدبية الأخرى داخل الإطارالاجتماعي والثقافي والأدبي والتاريخي، فكأن لدينا نظاما متعدد النظم وهو ما يتولد عنه تطور مستمر يجعل الأدب المترجم في لحظة تاريخية معينة يحتل الصدارة أو يتراجع ويفسح المجال لنظام أدبي آخر. ويطبق د.عناني ذلك على حركة الترجمة بدءا من عصر المأمون وحتى القرن العشرين، ليفسر التباين في مكانة الترجمة في العالم العربي ما بين صعود وهبوط وكذلك العناية بالترجمة عن لغات أجنبية دون غيرها أو ترجمة ألوان أدبية أو أدباء بعينهم. ولا يفوته أن يرصد تأثير لغة الترجمة كـ"نظام" على العربية التراثية كنظام آخر داخل اللغة العربية مما أوجد أبنية نحوية وألفاظا وأساليب هي نتاج مباشر للترجمة. ثم ينتقل إلى دراسات الترجمة الوصفية على يد توري التي تجد في دراسة "الاتجاه العام للترجمة" ما يفيد في استنباط قوانين احتمالية (probabilistic) ومعايير (norms) تتحكم في قرارات المترجم وتحدد "نوع ومدى التعادل الذي تحققه الترجمات" (ص ٢٢٩)، الذي يصبح في هذه الحالة تعادلا مفترضا وليس التعادل القائم على موازنة تعبير بتعبير أو البحث عن أوجه الصواب أو الخطأ في نقل المعنى. ومرة أخرى يطبق معايير توري على ترجمة شكسبير إلى العربية منذ مطلع القرن العشرين في إطار الحركة القومية والحركة الرومنسية في مصر بل وفي إطار التقاليد الاجتماعية والأعراف اللغوية للمجتمع المصري آنذاك. كذلك يشير إلى تصنيف آخر للمعايير وضعه تشسترمان (١٩٩٧)، ثم ينتقل إلى مدرسة المعالجة (The Manipulation School) التي ترى الأدب نشاطا ديناميا يتأثر بـ"المعالجة" أي الترجمة، وكان لها الفضل في التمهيد للتحول نحو الثقافة في دراسات الترجمة (The Cultural Turn) الذي بدأه أندريه ليفيفير وسوزان باسنيت اللذان دعيا إلى تجاوز المقارنات اللغوية والاهتمام

بدورالمناخ الثقافى للنص والأسس الفنية السائدة (dominant poetics) في تقديم "صورة" للأدب في لحظة تاريخية معينة قد تصل الى إعادة كتابة النص (rewriting)، وهو ما يختبره بالتطبيق على ترجمات المستشرقين للأدب العربي في القرن التاسع عشر وترجمات شكسبير إلى الفصحى التراثية المنثورة أو الفصحى المعاصرة المنظومة أو العامية المصرية المنثورة. ويتناول الجزء الأخير من الفصل مباحث أخرى للترجمة تبين التحول الواضح نحو الثقافة بظهور النظرية النسوية للترجمة التي تهدف إلى تأكيد هوية المرأة وموقفها الأيدولوجي فيما تقوم به من ترجمة لإعادة تشكيل سلطة النص، وكذلك مبحث الترجمة ودراسات ما بعد الاستعمارالذي يسلط الضوء على علاقات القوة (power relations) التي تتجسد في ترجمة آداب الشعوب المستعمرة في السابق إلى لغات الدول الاستعمارية وما يعبر عنه من صراع غير متكافىء بين اللغات المحلية واللغة الإنجليزية على سبيل المثال. وأخيرا مدرسة التهام الآخر (The Cannibalist School) على يد إلزا فييرا (١٩٩٩) التي تدعو الى التهام المستعمر السابق من خلال ترجمة ثقافته ولغته وهو ما ينتج نصا جديدا يجدد ثقافة المستعمِر والمستعمَر معا.

وفى الفصل السابع والأخيريتناول المؤلف موضوعين، أولهما دور المترجم وثانيهما النظريات الفلسفية ومذاهب النقد الأدبي وتأثيرها على دراسات الترجمة. تحت العنوان الأول يورد آراء لورنس فينوتي عن الدور الإيجابي للمترجم ورفضه فكرة اختفاء المترجم (invisibility) وهو الدور الذي تفرضه الثقافة الأنجلوسكسونية على المترجم كى يخرج ترجمة سلسة (fluent) تتفق ومصطلح اللغة الإنجليزية، ويورد في هذا الاطار مصطلحي فينوتى إضفاء الطابع المحلى (domestication) وإضفاء الطابع الأجنبي (foreignization) وما يرتبط بالأخير من نهج المقاومة (resistancy)، الذي لا يعني بأى حال إخراج ترجمة ركيكة أو حرفية. فيورد د.عناني ترجماته لقصيدة لييتس وقصيدة لوردزورث وفقرة من رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل وأخرى من رواية "المعذبون في الأرض" لطه حسين كى يدلل على فكرته. ويتطرق لباحث آخر هو أنطوان بيرمان الذي يتناول ذات المفاهيم من خلال مصطلحيه التغريب والتجنيس، رافضا الأخير لأنه يختزل التنوع الإبداعي واللغوي للعمل الأصلي أثناء ترجمته. كما يستعرض استراتيجيات بيرمان التي يرى الأخير أنها تؤدي في نهاية المطاف إلى تشويه الأعمال الأدبية المترجمة. وفي الجزء الثاني والأخيرمن الفصل يتناول بعض الأفكار الفلسفية التي فتحت آفاقا جديدة لدراسة الترجمة، من بينها الحركة التفسيرية (hermeneutic motion) لجورج شتاينرالتي تنتقل عن طريقها الدلالة من النص المصدر إلى النص المستهدف من خلال عناصرها الأربعة: الثقة البادئة فيما يعتقد المترجم بصحته، والعدوان على النص المصدر أو الاختراق والإدراج لمعنى النص المصدر في اللغة المستهدفة، والتعويض أو الإعاضة عما يناله النص المصدرمن خسارة لبعض معانيه في الترجمة، والمكسب الذي يحققه في ذات الوقت بنقله الى لغة أخرى. ثم ينتقل إلى المذهب التجريبى لعزرا باوند وإمكانية تجديد طاقة اللغة على التعبير من خلال إبراز الإيقاع والصوت والشكل لا من خلال المعنى، وهو ما يجعل الترجمة عملية إبداعية. ثم يبين إسهامات فالتر بنيامين في التأكيد على قدرة الترجمة على بعث الحياة في النص المترجم والكشف عن العلاقة بين اللغات التي تظل خبيئة حتى تظهرها الترجمة في صورة لغة نقية، ويمر سريعا على آراء التفكيكيين في الترجمة الذين ينكرون إمكانية الترجمة لعدم وجود معنى ثابت لأي كلمة.

وفى كلمة أخيرة يؤكد د.عناني على الزخم الذي تكتسبه دراسات الترجمة في الجامعات المصرية والعربية وأهمية الخبرة العملية وممارسة الترجمة قبيل تناول نظريات الترجمة بالدراسة وفوق ذلك الوعي بخصوصية اللغة العربية بمستوياتها المتباعدة.

ويظل كتاب ***نظرية الترجمة الحديثة: مدخل الى مبحث دراسات الترجمة*** مرجعا رئيسيا باللغة العربية لكل من يريد أن يطلع على هذا المبحث بنظرياته المتشعبة لما يحويه من عرض لكافة الآراء الداعمة والمعارضة لكل نظرية، وهو ما يوفر إحاطة كاملة للقارىء، وإيراده المصطلحات الأجنبية لكل نظرية ومقابلها بالعربية داخل النص، إضافة إلى المسرد في نهاية الكتاب وما لذلك من فائدة في توحيد المصطلح لدارسي الترجمة على امتداد أقطار الوطن العربي. وفوق ذلك رفع وعي القارىء بخصوصية اللغة العربية وما قد يتطلبه ذلك من تطويع بعض النظريات لتلائم الثقافة العربية.

هبة عارف*

* أستاذ دراسات الترجمة، قسم اللغة الإنجليزية وآدابها، كلية الآداب، جامعة القاهرة.

Cairo Studies in English – ٢٠٢٣(١): ١٤٣–١٤٨. https://cse.journals.ekb.eg/

DOI: 10.21608/cse.2023.333150